إضاءة

صادف الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول الجاري الذكرى التسعين لزيارة الشاعر الهندي للاتحاد السوفييتي، وهي الزيارة التي أسفرت عن نص بعنوان «رسائل من روسيا»، وقد تُرجم إلى اللغة الروسيّة عام 1956، وفيها يحذّر طاغور من «التواصل القاصر بين إرادات الحاكم والمحكوم»، وهو الأمر الذي لا تتذكره الأنظمة اليوم

رسائل طاغور الروسية

تأملات في الجانبُ المظلم من القمر

مناش فراق بتاشارجي

وصلَ رابيندرانات طاغور (1861 - 1941) إلى الاتحاد السوفييتي في 11 سبتمبر/ أيلول 1930. وكان قد أغرَبَ عن رغبته في زيارة البلاد عندما التقى سفيرَ الاتحاد السوفييتي في استوكهولم الكسندر أوروسيف كان أوروسيف كاتباً صغيراً برأس اتحاداً للعلاقات الثقافية مع دولٍ أخرى، وقد أعدمَ لاحقاً في عهد ستالين. دعا الكاتب المسرحي والناقد والصحافي أناتولي لوناشارسكي، الذي يعمل في وزارة التعليم، طاغور إلى روسيا بصفتِهِ الشخصيّة. تحمّس الكثيرون لزيارة طاغور، ومنهم المستشرق الروسي سيرغي أولدنبورغ المتخصّص في الدراسات البوذيّة. لا تركّزُ هذه المقالة على تفاصيل الزيارة، بل على النصّ الشهير الذي نتج عن زيارة طاغور إلى روسيا: «رسائل من روسيا». تُرجمت الرسائلُ إلى اللغة الروسيّة في عام 1956. ويبدو أن ستالين لم يكن سعيداً بالرسالة الثالثة عشرة، والتي أدلى فيها طاغور بانتقادات وملاحظات حول النظام السوفييتي. لذلك لم تُنشر مقابلة طاغور مع صحيفة إزفستيا الروسيّة اليوميّة في عام 1930 باوامر من ستالين. نُشرت المقابلة لاحقاً في عام 1988 في عهد غورباتشوف.

الرسالة الأولى التي كتبها طاغور من روسيا مؤرّخة في 20 سبتمبر. كانت رسالته الثالثة الرسالة الأخيرة التي كتبها من الأراضي الروسية، والموقّعة على النحو التالي: «موسكو، 25 سبتمبر، 1930».

غادرَ طاغور شواطئَ الاتحاد السوفييتي في 25 سبتمبر، ووصلَ إلى برلين في الثامن والعشرين من الشهر نفسه، في اليوم الذي كتبَ فيه الرسالة الرابعة للوطن. ما يثير الاهتمام أن طاغور كان يتحدّث في الرسائل الثلاث التي كتبَها من برلين - أي الرسالة الرابعة والخامسة والسادسة - عن انطباعاته عن روسيا فقط.

كتب طاغور اعتباراً من 3 أكتوبر/ تشرين الأول، أي منذ رسالته السابعة فصاعداً، من سفينة المحيطات الألمانية «إس إس بريمن» في طريقه إلى أميركا. لكن الموضوع الأساسي بقيَ تأثير روسيا، والأسئلة التي أثارتها الزيارة في ذِهن الشاعر.

يطرحُ طاغور في رسالته الأولى في 20 سبتمبر السؤال التاريخي عن «الأشخاص المجهولين» في العالم، والذين يعيشونَ بلا كرامةٍ ولا أمل. يقول إنّه «لا يمكن بناء أي شيء يتصفُ بالديمومة على المحبة»، تلك القيمة المثاليّة المسيحيّة القديمة. يدمجُ طاغور فكرةَ الإيثار بالإشتراكية: «لا يمكنُ للفرد أن يقدّم مساعدةً حقيقيةً سوى من خلال المساواة وحسب»، ويأخذ النقطة إلى أبعد من ذلك: «لا يمكن للإنسان أن يفعل الخير لمن لا يحترمه»، ثم يتعمّقُ أكثر نحو فكرة أن احترام الآخرين عبارة عن قيمة تحدّدها المساواة الرسميّة والسياسيّة بموجب القانون.

إن فكرةُ «المساواة» ظاهرة أخلاقية وذات بعد اجتماعي، حيث يتأتّى الدافع الأخلاقي لفعل الخير لآخرين من روح المساواة. يشيرُ طاغور هنا إلى أن العدو الرئيسي ضد الإيثار الاجتماعي القائم على المساواة والاحترام هو «المصلحة الذاتية». يعني طاغور هنا المصلحة الذاتية للسلطة التي «تحرمُ الناس من حقوقهم الإنسانيّة». تستندُ فكرةُ الاحترام والإيثار والمساواة على أنّس مادية. ويشيرُ طاغور إلى النقطة الماركسية اللافتة للنظر التي مفادها أن «الحقَّ في الإرض لا يخُصُّ أخلاقياً مالك الأرض، بل يخُص الفلاح».

شعر طاغور بأن روسيا قد وَجَدتْ «حلاً جذرياً» لمشكلة المصلحة الذاتية في الشيوعية. ولكنه اعتبر أن الوقت لم يَحِنْ بعد للتعليق على «الثمرة النهائيّة» للتجربة. أشار طاغور على نحو غامض إلى «عيوب خطيرة» في النظام. وقد زار روسيا لاهتمامه الأساسي بدراسة نظام التعليم الجديد في ظل النظام الشيوعي. وقد أعجب بـ «التجارب» التي تُجرى هناك على «طرائق التدريس». وقد أثنى على هذا النظام التعليمي طيلة الزيارة، ولكنّه ترك تحذيراً مبكّراً في رسالته الأولى مفادُه أنه قد يكون من الصعب الحفاظ على «نظرية تعليم لا تتوافق مع قانونِ العقل الحيّ».

كانت هناك بعض النقاط الهامة في انطباع طاغور عن نظام التعليم السوفييتي أيضاً، فقد روى في رسالته الخامسة، التي كتبها من برلين في الأول من أكتوبر، عن زيارته لمركز تعليميّ يُدعى «كومونة الرواد». وقد تأثّر بترحيب الأطفال الأيتام الذين لا تظهرُ عليهم أي علامة إهمال أو ارتباك، وقد أجابوا عن أسئلته بثقة. قام الطلاب بدور «الصحف الحية» وشرحوا له الخطّة الخمسية. وكتبَ طاغور في رسالته السابعة عن كيفيّة استخدام السوفييت للمتحف كموقع تربوي.

لاحظَ طاغور في رسالته الثانية التي كتبها في 19 سبتمبر، أن «رؤية الثروة» قد شهدَتْ تغييراً واضحاً بفضل انتفاء «التمييز بين الناس على أساس الثروة» في روسيا: «ليس هناك شيء غيبيٌ في الفقر، بل إنه مُجرّدُ حاجة». لذلك يجدُ البشر أنفسهم متساوين عندما يتم التغلّب على الحالة الاجتماعية للفقر من خلال إدراك الحالة الطبيعيّة للحاجة.

يقوم هذا التصوّرُ على فكرة أنّ: الحاجة طبيعيّة، والفقرُ اجتماعيّ. يتعاملُ طاغور مع فكرة المُلكيّة في رسالته الخامسة في الأول من أكتوبر من برلين، فقد كتب: «المُلكيّة الشخصية للفرد هي لغةٌ فريدتِه. فلو كانت مجرّد وسيلةٍ لكسْبِ الرّزق وليس للتعبير عن الذّات، لكان من الأسهلِ إقناعُ الفرد بالحُجّة بأن المرءَ يُحسنُ معيشَتَهُ بالتخلّي عنها».

يساوي طاغور فكرة المُلكية الخاصّة بالفِكْر والموهبة، وحجّتُه أن المُلكيّة جزءٌ من شيءٍ جوهريّ وخلّاق. يعتقدُ طاغور أنه يمكنُكَ تقييدُ «النّزعة الفرديّة المُفرطة» ولكن لا يمكنك التخلّص من «الرغبة» في المُلكية الخاصّة. كما أن الحاجةَ أمرٌ طبيعيّ، فإن الرّغبة في المُلكية الخاصّة أمرٌ طبيعيٌ أيضاً. يجب أن تعمل فكرة «الصالح العام» وفقًا لطاغور كمبدأ مُزدوج: مَنْعُ المُلكيّة «من التحوّل إلى الجشع والخداع والقسوة»، ولكن أيضاً عدمُ نزع المُلكية «بالقوّة». يؤمنُ طاغور، مثل روسو، بأن المُلكية طبيعيّة ولا بد من إعادة تشكيلها لخدمة الصالح العام. كتبَ طاغور في حالة الشيوعية الروسية:

« أنكَرَ السوفييت ذلك في محاولة لحل المشكلة. وهكذا لم تكن هناك نهاية للعنف». تنبّعُ الجذور النفسيّة للعُنف الذي أطلقَهُ النظام السوفييتي من الرفض الأيديولوجي لقبول الفرد الحديث.

يريدُ طاغور، بروح الرومانسيين التي يتمتّع بها، أن يتمّ «التودّد» للطبيعة البشرية بدلاً من استعمال الإكراه. ربما أوجَدتْ لنا فكرةُ طاغور هذه أرضيةً ومساحةً لإعادة التفكير في مسألة العنف الأصلي.

إذا كان من المستحيل التفكير في الثورات الحديثة بدون عنف، فإن أولئك الذين يؤمنون بمبدأ التغيير هذا ينبغي أن يعترفوا بأن العنف يحدّ من أهدافه تدريجياً، ويتغلّبُ في النّهاية على الإنجاز.

(Manash Firaq Bhattacharjee كاتب هندي. ترجمة عن الإنكليزية: عماد الأحمد)

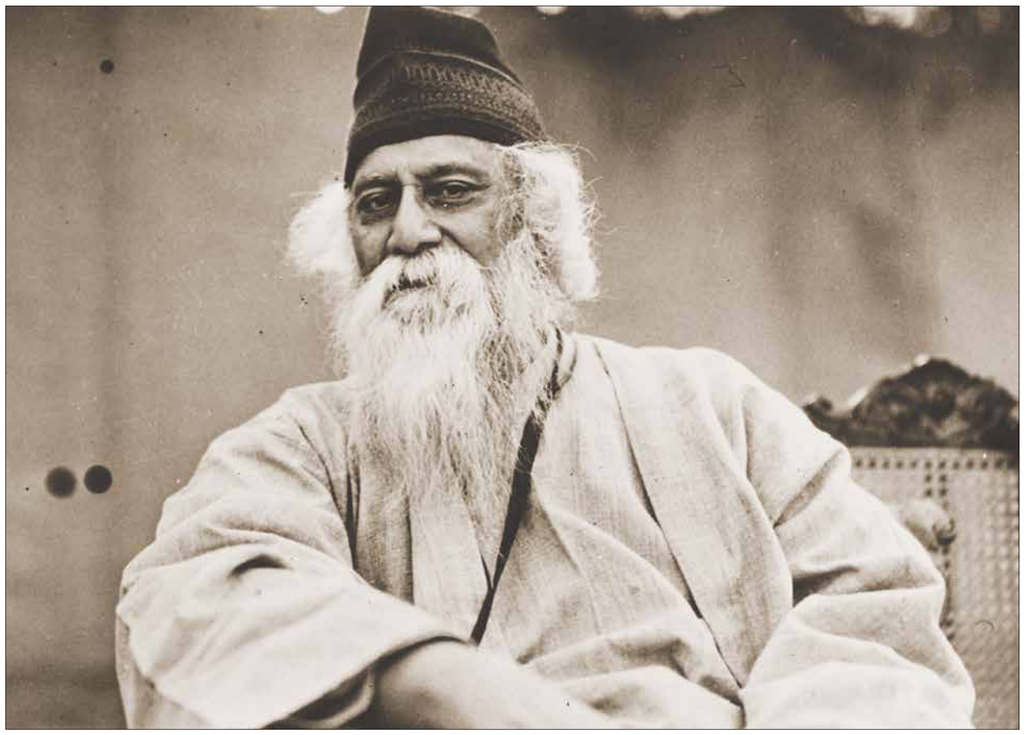

طاغور عام 1935 (Getty)

اجرى مقابلة مع صحيفة روسية لكنها لم تُنشر إلا عام 1988

تناولت الرسائل الأسئلة التي أثارتها الزيارة في ذِهنه

النص الكامل على الموقع الالكتروني

مقابَلة التجربة الفاشية

راشيار ثِثّي

لا ينسى طاغور الإشارة إلى الفارق المهمّ بين التجربة الشيوعية والتجربة الفاشيّة. ويعترفُ بأن الدولة السوفييتية قد اوقفتْ «جشع القوة المُطلقة»، ما أدّى إلى قمع الحُرّية الفرديّة، ولكنها كانت تتضمّن مع ذلك «ميزة تعويضيّة»: «في ما يتعلق بالمبادئ السوفييتية الاساسية، فإنهم لا يتوقّفون في سعيهم لزيادة القوّة الكامنة للانسان من خلال التعليم العام والثقافة؛ إذ لم يقمعوها قمعا تامّا مثل الفاشيين».

تصويب

بعد توهُّمٍ

مصطفى فضفاضي

النفس التي نسكنها في زمن الوباء: ألفةٌ مفزعة، حميميّة أجنبيّة. حائرين وغرباء، نحلّ في زمن الوباء ضيوفاً على أنفسنا.

نجد «الموجش» الفرويديّ The uncanny بانتظارنا في عقر وغمْدِ دارنا: ألفةٌ مفزعة، حميميّة أجنبيّة. صدىً وجوديّ معاصرٌ لسؤال عنترة العبسيّ المعلّق في معلّقته: «أم هل عرفتِ الدار بعد توهّم؟».

مؤنِسةٌ وموجِشةٌ هي الدار التي نسكنُها ونسكُن إليها منذ هجرتنا الأولى إلى الحياة، لم نغادرْها قطّ. لكن يذهلُنا كم ابتعدْنا عنها، وكم تكدّس في غرفِ نومِها وجلوسِها من حيواتٍ غابرة وشُغوفاتٍ مُهْمَلة ونسيانات.

مقيمين فيها ونازحين عنها نحمِلُ كلّ مفاتيح العودة، وكلّ الأقفال.

نقفُ على عتبتها مأخوذين بكثافةِ ورهافةِ جدرانِها وبغزارةِ ما يُزهِرُ وما يذبُل منّا داخلها.

ندخلُها الآن، وقد ألِمَّ بنا ما ألَمَّ بنا من شرخٍ في الوجود، بتوجُّس العائدين وشوقِهم. نَهيم في ممرّاتها دون أدنى رغبة بفتح الشبابيك لئن تخذّلنا العتمة هذه المرّة، ستُرتّقُ خيالُنا المثقوب وستصوّب قلبَنا المتعثّر.

نتوسّلُ الموسيقى أن تكونَ لنا وطناً عابراً بين منافينا اليوميّة. وأن تأخذَنا إلى أقربِ كرسيٍّ لكي ننهارَ بهدوء، مُتشبّثين بعزلتِنا خشيةَ أن يُطبِقَ عليها فخُّ الوحدة المكتظّةِ بروّارٍ لا يطرقون الباب.

(شاعر واختصاصي نفسي عيادي من فلسطين)

إطلالة

الهجرة إلى العالمية

معدوح عزام

لا يوزّع الكاتب العربي في بلاده، وفي العالم العربي، الذي يزيد عدد سكانه اليوم على ثلاثمائة مليون نسمة، أكثر من ألفي نسخة، من أفضل رواياته، أي من رواية واحدة جيدة ومشهورة بين القراء. ومع ذلك فإنه يحلم بالهجرة إلى العالمية، ويأمل أن يكون حظّه في اللغات الأخرى أكبر من حظه في لغته الأم، وأن يكون عدد الذين سيقرأون روايته، في تلك اللغة التي سيهاجر إليها، أكثر من عدد من قرأوها من بين إخوته المفترضين الذين رضعوا حليب هذه الأم. اللغة نفسها في هذا العالم العربي. ومن الطريف أن تكون الترجمة واحدة من المعايير التي يتم من خلالها تقدير قيمة الكاتب في بلادنا، وفي لغتنا. بل إن بعض القرّاء يتمنون لمن يعجبهم من الكتاب أن يترجم إلى لغة ما أجنبية، كي يصبح «عالميا».

من حق الكاتب أن يبحث عن القراء، غير أن هذا الهاجس المحق ناجم عن الإحباط، لا عن النجاح والحضور. ففي حين نشهد صعودا مميزاً للرواية العربية في دائرة النشر العربية، نلاحظ فتوراً في قراءتها، وثمة من يلعنها أحيانا، وقد يتهمونها بالرداءة، وضعف المستوى الفني، وقلّة التجربة، والعجز عن إنجاز تقنيات مبتكرة، وإلى ما هنالك من مآخذ تسجّل ضد الرواية العربية، وتشهد أرقام التوزيع مدى قلّة ثقة القارئ العربي بالكاتب العربي. فكيف نحلم إذن بأن يقرأ رواياتنا قارئ من لغة أخرى لا يعرف عنّا شيئا يذكر؟

تضع باسكال كازانوفا في كتابها «الجمهورية العالمية للآداب» الكثير من المقاييس لتسمية الأدب عالمياً، وليس من بين تلك المقاييس إلا القليل مما يمكن أن يساعد الأدب العربي كي ينتمي فعليا إلى جمهورية الأدب العالمي، بل إن بعض تلك المقاييس تجعلك تشعر باليأس، ومنها مثلا «القِدَم» وهو مقياس شديد الظلم، إذ إن عمر الرواية العربية لا يزيد عن مائة سنة، ومن الصعب أن تقف في السباق العالمي مع دانتي وسرفنتس وبلزاك أو فلوبير. ثم إن القوائم على الأرض تثبت أن الكثير من الأعمال، خارج لغتنا، اخترقت شرط القِدَم، وتمكنت من تبوّء مكانة مهمة في سياق الأدب العالمي، خذ «مائة عام من العزلة» و«يوليسيس» و«الصخب والعنف». فمن أين نأتي بالقديم، غير الشعر؟

باستثناء «ألف ليلة وليلة»، وهو كتاب يحقق شرط القِدَم، لم يتمكن كتاب عربي من تجاوز حدود البحر المتوسط من حيث الحضور العالمي، والشهرة، والانتشار بين القرّاء في العالم. والطريف في حالة كتاب «ألف ليلة وليلة» أن الترجمة ساعدت في شهرته العالمية، ودفعت مئات آلاف من القرّاء للتعلّق به، كما كان له أثر كبير في خيال العشرات من الروائيين المعروفين في العالم، ولكن هل كانت الترجمة وحدها هي التي ساهمت في هذه المكانة؟ قد يصلح هذا الكتاب، إذا ما تأملنا مصيره، أن يدرس من هذا الجانب، لمعرفة بعض تلك الأسباب التي وضعته في هذه المكانة، وبعض تلك الأسباب التي تحرم غيره.

(روائي من سورية)

كلمات الشاعر الهندي التي أغضبت ستالين

ضد التفسير السينمائي للتاريخ

رأى طاغور أنّ روسيا تصرّفتْ بما لا يختلف عن الفاشيين، وأنّ نظامها الشيوعي ارتكبَ خطأً يتمثّل في استخدام تفسير تصويري وسينمائي للتاريخ

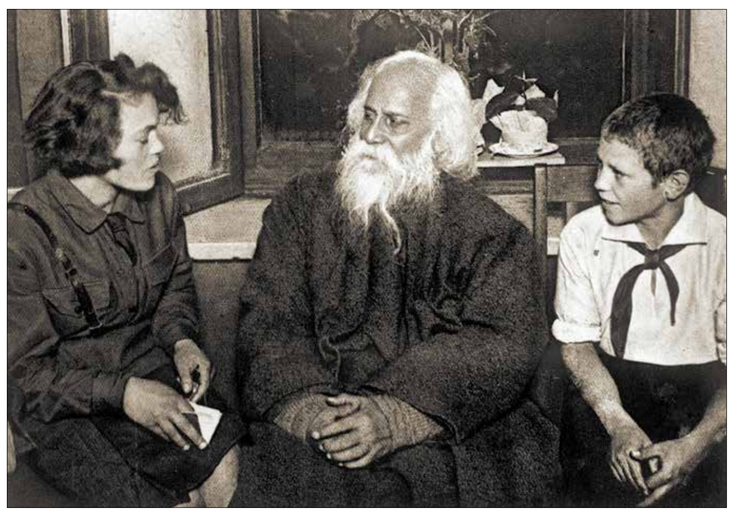

طاغور مع طلاب مدارس في الاتحاد السوفييتي، أيلول/سبتمبر 1930

في الرسالة الثالثة عشرة المكتوبة في 3 تشرين الأول/ أكتوبر، والتي أغضبت ستالين، يحاججُ طاغور بشدّة لصالح الفرد، ويعتقدُ أن روسيا بمَحْوِها «الخطّ الصحيح للفضل بين الفرد والمجتمع»، قد تصرّفتْ «بما لا يختلف عن الفاشيين»، مما يجعل النظام السوفييتي يجدُ صعوبةً في تفسير قمع الفرد باسم الحياة الجماعية. هذا هو «الجانبُ المُظلمُ من القمر»، الوصف الشهير الذي أطلقَهُ طاغور على روسيا في رسالته الثامنة.

اتّفقَ المُنشقّون السوفييت مع طاغور. فقد أدت حالة الإنكار التي وقع فيها النظام السوفييتي إلى جنون العظمة الذي تجلّى في قمع أيّ صوتٍ نقديّ. يقدّم طاغور في هذا الصدد حجّتين ملفتتين للغاية. أوّلاً أنّ النظام الشيوعي ارتكب «خطأً غريباً»: باستخدام «تفسير تصويريّ وسينمائي للتاريخ» لإظهار قسوة الإمبراطورية القيصرية، وقد انتهى الأمر بالنظام الشيوعي إلى تبنّي «سياسةٍ قاسية مماثلة». لطالما تكرّرَ هذا في التاريخ، حيثُ تدفعُ هذه الأنظمة المنطقَ والقوّة الأخلاقية لحُجّتها أو دعايتها ضدّ الأنظمة الأخرى، من خلال الانخراط في أعمال العنف المُماثلة. وهذا يمثّل النّفاقَ الأخلاقيّ والسياسيّ في آن واحد، ويحدّ من السلطة تماماً، ولا يمكنك خداعُ أحد به في نهاية المطاف.

تعيدُ الحجة الأخرى المثيرة للاهتمام التي يقدّمها طاغور ضد هذا العنف الجدل إلى مسألة الطبيعة. يقولُ طاغور: «إن الأشخاص الذين لا يمتلكون الصبر لانتظار أن تتصالحَ الطبيعة البشريّة مع زمنِها يؤمنونَ بالاضطهاد». فكرة الطبيعة البشرية في هذه الصيغة فكرةٌ قابلة للتغيير، والطبيعة البشرية ليست ثابتة. إذا أردنا تغيير الطبيعة البشرية أو تغيير حساسيتها، فلا بد من منحها الوقت الكافي. بطالبُ طاغور بالصبر عندما «تكونُ النظريّة جاهزة، أما البشر فلا»، وهذا تصريحٌ هامّ ضد التنظير المُتصوّر كمشروع علميّ، والذي يتم تنفيذُه كعلمٍ تطبيقيّ على المجتمع البشري.

لا يعارضُ طاغور مجيء التغيير العظيم وخلقَ «عصرٍ جديد» يقتلعُ «المعتقدات والعادات القديمة». وينتقدُ طاغور في رسالته الثالثة معنى كلمة «التقليدي» كشيء «ملتصق» بالبشر مثل «الشّقق الكثيرة» التي «يحرُس بوّاباتها حراسٌ لا يُعرَفون ولا يُحصَون».

تُذكّرنا هذه الصورة (وهذا الوصف) للتقاليد بوصف أمبيدكار، حيث تُحظر أبواب المعرفة والسلطة على أيدي حرّاس البوّابة الذين يتمتّعون بالانتماء إلى فئةٍ أو طبقةٍ اجتماعيّة مُعيّنة. تحمّس طاغور لأن هذه البوابات قد تحطّمتْ في الاتحاد السوفييتي.

م. ف. بتاشارجي

فعاليات

وسط مش ناو عنوان معرض الفنان المصري **احمد حامد** الذي افتتح في الثالث عشر من الشهر الجاري، في مكتبة وغاليري **فللك** بالقاهرة، ويتواصل حتى الثلاثين من ايلول/ سبتمبر المقبل، والذي استمدّ عنوانه من ترينذ «وسط ناو» الذي انتشر اخيرا على وسائط التواصل الاجتماعي، ويُظهر صورة سلبية لوسط القاهرة.

يقدّم **محمد ياسر شاهين**، الباحث في مركز البحوث والدراسات الإسلامية في تركيا، محاضرة عند الثانية من بعد ظهر غدٍ الاحد في **مكتبة قطر الوطنية** بالدوحة بعنوان **المذهب الحنفي ومدرسة ما وراء النهر**. يتناول المحاضِر مخطوطات اول المذاهب الاربعة و تصنيفها زمانيا ومكانيا، وما عليها من قيود النسخ والمدارَسة والتّداول عبر مئات السنين، حتى وصلت الى مكتبة قطر.

تنطلق، مساء غدٍ السبت، فعاليات **مهرجان ليالي المسرح الحر الشبابي** في عمّان بدورة افتراضية تتواصل حتى الرابع والعشرين من الشهر الجاري. من بين الاعمال المشاركة: **طرق** (الصورة) لـ **عمر الضمور**، و**سبعة** لـ **دعاء العدوان**، الى جانب تنظيم عدد من الندوات و تقييمات العروض على منصّات المهرجان الالكترونية.

يُفتتح نهاية الشهر الجاري في **المتحف البريطاني** بلندن معرض **التانترا.. تنوير للثورة** الذي يتواصل حتى الرابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير المقبل. يضيء المعرض على نشأة الفلسفة الهندية التانترا قبل اكثر من ثلاثة آلاف عام، وكيف أثّرت بالمشهد الديني والثقافي والسياسي في البلاد.